مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 3 السنة: 2021
ص: 275 - 291 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

دور جمعية العلماء المسلمين في صون اللسان العربي من الفرنسة والتغريب
البشير الإبراهيمي نموذجا

The role of the Association scientists to save the Arab linguistic from French and westernization
El Bashir El Ibrahimi as a sample

تراس عائشة [1]*، د.فلاح خير الدين [2]
Terras Aicha[1], D.Fellah Kheireddine[2]
جامعة وهران أحمد بن بلة 01 الجزائر
University of Oran Ahmed Benbela 01 Algeria
مخبر مخطوطات شمال إفريقيا
The North African Manuscripts Laboratory
terrasaicha91@gmail.com[1] fellah.elkhair.med4@gmail.com [2]

تاريخ الإرسال:2020/11/07	تاريخ القبول: 2021/01/20	تاريخ النشر : 2021/09/02

ملخص البحث

تتناول الورقة موقع المسألة اللغوية وما استأثرت به عقول العلماء الإصلاحيين فيا لجزائر على رأسهم مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وجهودهم الجبارة في سبيل إحياء اللغة العربية والذود عنها بالقلم والفكر والدعوة، إعادة تنشيط الحركة الإصلاحية من خلال إنشاء مدارس تعليمية ونشر الكتاتيب للحفاظ على الهوية الوطنية من الفرنسة والتغريب والغزو الثقافي.

ومن بين علماء الجمعية الذين كرسوا حياتهم في مجابهة السياسة الفرنسية والمحافظة على الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، البشير الإبراهيمي الذي عمل على نشر الوعي ورفع الجهل عن الأمة الجزائرية متبعا في ذلك منهج الجمعية وتجاربه الخاصة التي استقاها من رحالاته العلمية.

الكلمات المفتاح: جمعية علماء مسلمين جزائريين، لغة عربية، البشير الإبراهيمي، سياسة فرنسية، تغريب وغزو ثقافي.

Abstract :

The paper deals with the place of the linguistic issue and what accounted for the minds of reformist scholars in Algeria, led by the founders of the Algerian Muslim Scholars Association, and their tremendous efforts in order to revive the

* تراس عائشة: terrasaicha91@gmail.com

Arabic language and defend it by pen, thought and advocacy, revitalizing the reform movement through the establishment of educational schools and the publication of books to preserve the national identity from the French Westernization and cultural invasion.
Among the association's scholars who devoted their lives to confronting French politicies and preserving the Algerian Arab-Islamic personality, is Al Bashir Al Ibrahimi, who worked to spread awareness and fight ignorance in the Algerian nation, following the association's approach and his own experiences that he gleaned from his scientific travels.
Keywords: Association of Algerian Muslim Scholars, Arabic language, Al-Bashir Al-Ibrahimi, French politics, Westernization and cultural invasion.

المقدمة:

تعد اللغة مقوما من مقومات الهوية والانتماء الإسلامي لأنها اللسان الناطق والمترجم لما جاء به التشريع، كما تعتبر البؤرة التي يلتف حولها نسيج الأمة، ومما لا ريب فيه أن تحقيق التوازن النفسي والذاتي لا يتحقق دونها، فهي صورة الانتماء إلى هوية محددة أولها عناصر اللغة العربية أحد ركائز ثوابت الثقافة العربية الإسلامية، لأنها أول منافذ الاستعمار لغرس سمومه وضرب معالم الهوية وهزيمة الذات العربية الثقافية أو انسلاب حضاري خاصة التغريب والغزو الثقافي، ولأن اللغة العربية ليست مجرد رموز ومواصفات فنية، بل هي منهج وأسلوب وتصور لواقع الأمة ورؤية شاملة، ومن بين رواد الإصلاح الذين عالجوا قضايا اللغة العربية وعلاقتها بالأمة وانتماؤها للدين واللغة والأمة والثقافة، الشيخ البشير الإبراهيمي الذي سخر حياته للغة العربية والمجتمع الجزائري نتيجة التواجد الاستعماري والمتصفح لمقالاته وخطبه يلمس ذلك من خلال مواقفه وتمجيده للثوابت العربية وكشف الخطط الاستعمارية وأهدافها الرامية للمحو والقضاء على مقومات وثوابت الهوية الوطنية الإسلامية، مما ساعده على ذلك انخراطه في جمعية العلماء المسلمين الجزائرية وسن أهدافها الرشيدة قصد إفشال مساعي السلطات الاستعمارية بإنشاء مدارس للتعليم العربي حر في القطر الجزائري.

ومن خلال هذا المقال الذي يروم إلى توضيح رؤية البشير الإبراهيمي للغة العربية وصلتها الوثيقة بالقرآن الكريم ومنزلة اللغة العربية ومكانتها عند الشعب الجزائري خاصة والأمة الإسلامية عموما، والتحذير من سلخ الهوية الوطنية الجزائرية وإحلال محلها الهوية الغربية الفرنسية وذلك بالوقوف على مخططات الإدارة الفرنسية وسياستها الخطيرة في الجزائر لمحاولتها في تغريب المجتمع الجزائري وإقناعه وتسويق

الثقافة الفرنسية دينيا ولغويا وهذا يعد مظهرا من مظاهر التغريب والغزو الفكري والثقافي في الجزائر بشكل خاص والوطن العربي بشكل عام، ومن هنا نطرح الإشكالية التالية:

إلى أي مدى نجحت السياسة الفرنسية في تغريب اللسان العربي وما موقف البشير الإبراهيمي من ذلك؟ وما هي أبعاد ومخاطر هذه الفرنسة والتغريب؟ وكيف لنا أن نقضي على ظاهرة تغريب اللسان العربي؟

ومن خلال هذه الورقة نتعرف على التحديات التي واجهت الفرد الجزائري وكيف أثبت انتماؤه وأليات التصدي لهذه الظواهر والهجمات التي أساسها الصراع الديني.

شهد النصف الأول من القرن الماضي ظهور حركة فكرية ثقافية في الجزائر نت بينها تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان لها الدور البارز والفعال في إحياء القيم ودعم الثورة الجزائرية من خلال الجهود المبذولة على كافة الأصعدة، ومن خلال هذه الورقة سنسعى لإبراز هذه المساعي والجهود الجبارة والمتمثلة في التعريف بالجمعية ودورها في محاربة المحتل الفرنسي بالقلم وذلك بالوقوف على نضال الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجا، ودوره في رفع غياهب الجهل عن المسلم الجزائري وذلك بإعادة إحياء اللغة العربية ودفاعا عنها وبث روح الانتماء وغرس القيم وتخليص الإسلام من الشبه والبدع والخرافات.

أولا: العوامل المساعدة على نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

هناك جملة من الأسباب لها الأثر والدور الفعال في تأسيس جمعية العلماء الجزائريين نذكر منها:

1- التأثر بالحركة الإصلاحية التي قادها مُحَمَّد عبدو ودورها في استنهاض الهمم لدى الإصلاحيين في الوطن العربي.

2- التطور الفكري الذي طرأ على عقول الناس من مخلفات وآثار الحرب العالمية الأولى.[1]

3- الواقع النفسي للحرب على الجماهير الجزائرية.

4- ظهور الحركات السياسية في قلب الوطن كحركة الأمير خالد، والعلماء المحافظين وحركة نجم شمال إفريقيا.[2]

5- انتشار البدع والخرافات بين صفوف العامة كالإيمان بالأولياء وغيرها من الخرافات التي تشوب وجه الدين النقي.[3]

عرفت الجزائر ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05 ماي 1931م كحدث تاريخي في تاريخ الجزائر الحديث ردا على احتفالات فرنسا[4]، وكان ذلك بمدينة الجزائر وفي المحل الثقافي الإسلامي

(نادي التراقي)[5]، فشرعت في العمل على تطهير المجتمع الجزائري المسلم من الشوائب والخرافات التي ألحقها الدخلاء على الدين، كأن الله جعلها تنقيصا للاستعمار، فقد كان فرحا بانتصاره في الجزائر واستقراره بها بعد مرور مائة سنة، فما إن دخلت السنة الثانية فوجئ بتكوين جمعية العلماء في غمرة من ابتهاج الأمة بهذا المولود الجديد[6]، وقد كان على رأس مؤسسيها ثلة من علماء الإصلاح من أمثال عبد الحميد بن باديس، مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، مبارك الميلي، العربي التبسي وغيرهم... [7]

وتم وضع القانون الأساسي وتشكيل مجلس الإدارة على الصورة الآتية: [8]

– عبد الحميد بن باديس	رئيسا
– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي	نائبا للرئيس
– مُحَمَّد الأمين	كاتبا
– الطيب العقبي	معاونه
– مبارك الميلي	أمين المال
– ابراهيم بيوض	معاونه
– المولود الحافظي	مستشارا
– مولاي بن الشريف	مستشارا
– الطيب المهاجي	مستشارا
– السعيد البجري	مستشارا
– حسن الطربلسي	مستشارا
– عبد القادر القاسمي	مستشارا

أهدافها ومبادئها:

لقد لخص ابن باديس مبادئ وأهداف الجمعية في الشعار الذي وضعه وهو (القرآن إمامنا والسنة سبيلنا والسلف الصالح قدوتنا وخدمة الإسلام والمسلمين وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا). [9]

وتتضمن الأهداف الرئيسية للجمعية كما صاغها الإبراهيمي:

– إحياء الدين الإسلامي وتاريخه.

– استعادة المساجد وكل الأوقاف العمومية للجمعية.

– استقلالية القضاء.

– الحرية التامة للتعليم العربي وإحياء اللغة العربية والأدب حفظ الهوية الوطنية الجزائرية وتعزيز العلاقات مع العرب والمسلمين.[10]

وتجدر الإشارة إلى أن أهداف الجمعية بلا منازع إنما هو تعليم اللغة العربية[11]، فهي بذلك توجهت إلى ميدان التعليم، وعملت على إحياء الهوية وتطهير العقيدة[12]، بالإضافة إلى مقاومة نشاط رجال التبشير بالدين المسيحي الذين تحميهم فرنسا.[13]

لقد اتخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وسائل متعددة ومتنوعة لتحقيق غاياتها وأهدافها نذكر منها:

– التعليم: حيث قامت بفتح المدارس والمساجد لتعليم القرآن واللغة العربية.

– تأسيس الأندية للشباب في الوطن، وفي فرنسا للعمال الجزائريين.

– إنشاء الصحافة الوطنية: إرسال الوفود التي تجوب البلاد لتبليغ الدعوة وتنشيط الحركة الإصلاحية.

– التنسيق بين عمل الجمعية وغيرها من المنظمات الأخرى.[14]

ونخلص إلى أن جمعية العلماء كانت تهتم بالإصلاح داخل التراب الوطني في شتى المجالات الدينية والثقافية، وكانت تسعى من خلال ذلك إلى الحفاظ على مقومات الشخصية العربية الجزائرية، هذه الشخصية التي سعت السلطات الاستعمارية جاهدة إلى القضاء عليها ومحاربتها وتضيق حدودها، لكونها لم تهتم فقط بالجانب الإصلاحي الديني وتخليص الإسلام من الشبه والبدع، بل وضعت في بنودها قوانينها إعادة إحياء الشخصية الوطنية الجزائرية، قصد الوصول إلى تحقيق الاستقلال الثقافي والحضاري للجزائر لتحصل بعده على الاستقلال السياسي والاقتصادي عن فرنسا.

مشاريع الاستعمار الفرنسي في تشويه الهوية:

كانت فرنسا ورجال التبشير المسيحي يحاول طيلة تواجده من خلال الاحتلال الفرنسي بالجزائر (1830م-1962م) بفرض سياسة تعلمية في الفرنسية والتنصير والإدماج والأهداف التي كانت ترمي إلى تحقيقها من وراء تلك السياسة التي انتهجتها فهي بصورة رئيسية محو الشخصية الجزائرية من الوجود عن طريق محو مقوماتها الأساسية وهي الإسلام والعروبة والوطنية الجزائرية، فلذلك حاول الاحتلال تشويه الهوية الوطنية والقضاء عليها، فقد بذل أقصى جهوده منذ دخوله أرض الوطن إلى لحظة خروجه في طمس معالم اللغة وإحلال محلها المعالم الفرنسية.

أولا: الفرنسية

الواقع أن السياسة الفرنسية جاءت من أجل فرنسة شاملة للمجتمع الجزائري طال التعليم وكل مجالات الحياة والثقافة والإدارة في البلاد. والهدف منها محاولة صيغ الجزائر بصيغة فرنسية خالصة حتى تنقطع الروابط التي تربط الجزائر ماضيا وحاضرا أو مستقبلا بثقافتها ولغتها القومية وتاريخها الإسلامي، وانتمائها الحضاري إلى الأمة العربية حتى نشأت الأجيال الصاعدة في ظل هذه السياسة والأطر المرسومة نشأت ممسوخة في كل شيء، فقد كانت حركة الاستعمار الثقافية والتعلمية تحاول فرض الرؤيا الاستعمارية وتفكيرا مغايرا تماما لرؤية وتفكير مجتمعنا.[15]

فالثقافة الفرنسية تهدف لتحقيق مشروع فرنسة الجزائر واستئصال مجتمعنا من مقوماته الأساسية كما دل على ذلك تقرير فرنسي بهذا الصدد محاولة إطلاع الشباب الجزائري على حضارة وثقافة المستعمر، وتقاليده ليصبح هؤلاء الشباب عناصر مفيدة ووسطاء بين إخوانهم في الدين وفرنسيين، كما أعلن الدوق "دي روفيقو" قائلا: "إن المعجزة الحقيقية التي يمكن صناعتها في الجزائر هي إحلال اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل اللغة العربية.." ولتوطيد ركائز الاستعمار بمختلف الإشكاليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رفعت جهات استعمارية شعارات زائفة منادية بالتعليم من أجل الفتح تارة والعلاج من أجل الفتح تارة أخرى وغيرها من الشعارات... فقد جاء تقرير فرنسي آخر هذا مفاده: "إن التعليم يهذب الأخلاق وهي كلمة حق أريد بها باطل، ما دام هذا التعليم يربط الجزائري بالفرنسي قلبا وقالبا"، وطالت هذه النظرة الاستعمارية بعيدة الطموح لجعل من المدرسة وسيلة نحو تحقيق غاية ألا وهي توغل الوجود الفرنسي بإفريقيا.

وكان هذا التيار الفرنسي يسير على حساب المدارس العربية الحرة وذلك باستبدال بعضها بالمختلطة، وقد تدعم هذا التيار خلال فترة الحاكم العام "ما مكماهون" ما بين سنتي (1864م-1870م) ذلك أن المرسوم 02 ماي 1965م، إعادة إحياء مرسوم 14 جويلية 1850م بالنسبة للسياسة التعليمية التي تستهدف الفرنسة وقيم التعليم العربي.

وإذا كان بعض الكتاب الفرنسيين يرجعون فشل السياسة الفرنسية في الجزائر إلى الزوايا التي ظلت منتشرة في البلاد، إلا أن تلك الزوايا —في الواقع- كان دورها واضحا، محاربة الاستعمار ولكن بعد تاريخ 1872م، فقد سار بعضها في خدمة الاستعمار الفرنسي لصرف أنظار الأهالي عن تحرير البلاد.[16]

ثانيا: التنصير

ويعني بالتنصير محاولة إخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي وتنصيرهم كي يصبحوا مسحيين يحملون عقيدة المحتل لبلادهم وهذا يعني إحلال الديانة المسيحية محل الديانة الإسلامية في الجزائر، حتى يسقط وينهار مقوم آخر من مقومات الشخصية الجزائرية وهو "الإسلام" إذ لم يمض على احتلال الجزائري سوى شهران حتى أصدر إثرهما المحتل أمرا في 08 سبتمبر 1830م يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية التي تمول الخدمات الدينية والثقافية والتعليمية والاجتماعية للمسلمين الجزائريين على الرغم من الاتفاق المعقود بينهم وبين الحكومة الجزائرية في 04 جويلية من نفس السنة، حيث تعهدوا فيه باحترام الدين الإسلامي وأوقافه ومعاهده واحترام الملكية الجزائرية وحريتهم الدينية.[17]

وقد صرحت فرنسا غداة احتلالها للعاصمة في عام 1830م بأن جملة أهدافها من وراء عملية غزو الجزائر هو العمل على نشر المسيحية فيها والقضاء على الإسلام، فقد أعلن سكرتير الحاكم العام الفرنسي للجزائر بأن هذه السياسة لا سيما فقال: "إن آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين سنة لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك على أي حال أنها ضاعت من الإسلام إلى الأبد".[18]

بمعنى أن السلطة الاستعمارية كانت تبحث على تكوين ومن الصفوف الأولى من التعليم، نموذج الإنسان الجزائري المسلب الذي يرى نفسه جزء لا يتجزأ من فرنسا فيتنكر لأصوله البربرية ويتنصل من لغته العربية ويتبرأ من دينه الحنيف، وقد انحصر تعليم اللغة العربية في لعهد الاستعماري في الكتاتيب والمساجد والزوايا، ولكن سرعان ما تفطن الاستعمار الفرنسي إلى هذا الخطر الذي تمثله الزوايا التي سيخرج من أصلابها جيلا متمسكا بهويته العربية الإسلامية فعمل على محاصرتها، وفي هذا السياق يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "أن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو منذ احتل الجزائر عمل على محو الإسلام لأنه دين سماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية".[19]

وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائرية (1838م-1962م) على رأس القرن من المقاومة لأعماله، والعمل على تخييب آماله.[20]

وهذا ما يوضح السبب الذي جعل رجال الإصلاح من الرجل الأول من قادة الحركة الإصلاحية في الجزائر إلى التعليم العربي الإسلامي ومحاولة استقطاب من تعلم في المدارس الفرنسية ومن بينهم البشير الإبراهيمي، فمن هو؟ وما هي أهم مؤلفاته؟ وما هي رؤيته ورأيه في الثوابت الوطنية كاللغة وعروبة الشمال الإفريقي؟ وما موقفه من السياسة الاستعمارية؟.

التعريف بشخصية البشير الإبراهيمي:

ولد مُحَمَّد البشير بن مُحَمَّد السعدي بن عمر بن مُحَمَّد السعدي بن عبد الله عمر الإبراهيمي في الرابع من شوال في العام 1306 الهجري، الموافق للرابع عشر من جوان 1889م[21]، بقرية أولاد ابراهم الواقعة في سفوح الأطلس التلي بالجزائر تابعة لولاية برج بوعريريج.[22]

ويتحدث عن نشأته قائلا: نشأت على ما نشأ عليه أبناء البيوتات العلمية الريفية من طرائف الحياة، وهي تقوم دائما على البساطة في المعيشة والطهارة في السلوك والمنانة في الأخلاق، حيث قام على تربيتي وتعليمي من يوم درجت عمي شقيق والدي الأصغر الشيخ مُحَمَّد مكي الإبراهيمي عالم إقليمنا المعروف يوطن ربغة وفريد عصره في اتفاق علوم اللسان العربي، لم أفارق في تعليمي في بيت أسرتي، فهي مدرستي التي تعلمت، حيث أخذني عمي بالتربية والتعليم، فكان لا يخليني دقيقة واحدة من فائدة علمية، وكانت له طريقة عجيبة في تنويع المواضيع والمحفوظات، حتى لا أمل، مات عمي سنة 1903م، ولي أربعة عشر سنة، ولقد ختمت عليه دراسة بعض الكتب وهو على فراش المرض للذي مات فيه، وأجازني الإجازة المعروفة، وأمرني بأن أخلفه في التدريس.[23]

مؤلفاته:

عاش الإبراهيمي حياته تأثراً وتأثيراً، يحمل هم الجزائر وما تعانيه من ظلم الاحتلال الفرنسي المستبد، أينما حل وارتحل، ووجد أن السبيل الأمثل للتحرر من الاحتلال الماكر، وطرده من البلاد، وكان شغله الشاغل هو إعداد الرجال القادرين على حفظ الهوية العربية الإسلامية، التي بذلت فرنسا كل جهدها لمحوها، وسعت ولا زالت تسعى مسخها، فكان الإبراهيمي، يعمل ليلا ونهارا في ملاحقة الاحتلال، الذي استعبد شعبه، وسلب حريته، وصادر حقوقه، ويفضح خططه الرامية لجعلها فرنسية قلبا وقالبا ونظرا لهذا الجهد الكبير، لم يشبع وقته للتأليف والكتابة، فكان يواسي نفسه بأنه ألف للشعب رجالا يحملون فكرا سليما، ويفهمون الدين فهما صحيحا، ويتصفون بالعزة والشجاعة والإباء، يدافعون عن شعبهم ويسعون لما ما أتوا من قوة، لتحريره من الاحتلال، واسترجاع حقوقه المهضومة، وهذه الأفعال

الجليلة تقرب صاحبها من رضى ربه، ورضى شعبه، ومع انشغالاته الكثيرة، فقد أثرى المكتبة بموضوعات مفيدة، وكتب قيمة ومن أهم تلك الأعمال نذكر: [24] أسرار الضمائر العربية، عيون البصائر (وهي مجموعة مقالاته التي نشرت في جريدة البصائر)، وآثار الإمام البشير الإبراهيمي.

وفاتـــه:

توفي الشيخ البشير الإبراهيمي ظهر يوم الخميس التاسع عشر ماي 1965م، عن عمر يناهز السادسة والسبعين عاما، وقد صلي على جثمانه في المسجد الكبير وسط حضور جماهيري كبير، تقديرا لمنزلته الدينية والأدبية[25]، بمقبرة "سيدي مُحَمَّد" بالعاصمة، يوم الجمعة العشرين ماي 1965م. [26]

مواقف البشير الإبراهيمي:

1- توأمة العربية بالإسلام في التصور الإبراهيمي:

إن بين العربية والإسلام وشائج قربى لا تقطع، وجبال صلة لا تفك فهما متلاحمان متمايزان، لا يذكر أحدهما إلا ويستدعى الآخر بالإسلام حظيت العربية بشرف الخلود وتوجت بتاج الوقار، وبالعربية فهم الإسلام، وأنزل الكتاب الله، وإن لمن المتيسر على كل باحث في العلاقة أن يهتدي من خلال بحثه من قوة هذه العلاقة، ومتانة الرابطة، والإبراهيمي الذي مكرس حياته للإسلام والعربية أفاض الحديث في هذه المسألة، وإن المطلع على خطبه ومقالاته ورسائله إجمالا يخرج برؤية وتصور مفادها أن الإبراهيمي يعتقد اعتقادا جازما أن بين العربية والإسلام رابطا مقدسا لا انفصام له، وأن هذا الرابط المتمثل في القرآن الكريم، ومن ثم فإن العمل على بث وإحياء العربية وحمايتها وصونها والذود عنها هو الدفاع عن الإسلام وعمل خادم له، وذود عن حياضه، فيقول في هذا السياق: "وأما إحياء مجد اللسان العربي فلأنه لسان هذا الدين والمترجم عن أسراره، ومكنوناته، لأنه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم، لأنه لسام مُحَمَّد ﷺ صفوة الله من خلقه والمثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأن لسان تاريخ هذا الريف..."[27]، ويمضي الإبراهيمي في إبراز هذه العلاقة القوية بين اللغة والدين، مشيرا إلى إدراك الأمة الجزائرية لأهمية هذه الصلة والعلاقة حيث يقول في موضع آخر "لغة الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية –زيادة على ذلك القدر المشترك– أنها حافظة دينها، ومصححة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلة بينها وبين ربها". [28]

كما أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للإسلام، ومن هنا تحتم المحافظة عليها، ووجب تعلمها إذ هي "لغة الإسلام الرسمية، ومن ثم هي لغة المسلمين الدينية الرسمية، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان

أكيدان، كل منها تقتضي وجوب تعلمها فكيف إذا اجتها حق من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة، وحق من حيث أنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا".[29]

ولقد أدرك المستعمر سر العلاقة بين اللغة العربية والإسلام فراح يوجه سهامه المسمومة لضربها بغية ضرب الإسلام، تحركه أحقاد الحروب الصليبية، وتدفعه ثارات الصليبين الحاقدين بين المتعصبين وفي مقالة الإبراهيمي بعنوان "التعليم العربي والحكومة"، -يقصد حكومة فرنسا الاستعمارية- يبرز حقائق وملابسات تلك المعركة بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والسلطات الاستعمارية وحكومتها التي وضعت العراقيل أما التعليم العربي الحر في الجزائر، وهنا وضع الإبراهيمي حقيقة المعركة التي في الأصل طانت بين عقيدتين ودينيتين، فيجهر بإعلان هذه الحقيقة التي حاول الاستعمار أن يخيفها داعيا أبناء الأمة أن يأخذوا حذرهم بقوله: "الحقيقة التي يجب أن تعرفها أمتنا من هذه المعركة ويجب أن تنبع فيها شيوع الحقائق المسلمة، ويجب أن يأخذ كل فرد منها حظا من معرفتها فهي أنها صراع بين الإسلام والمسيحية".[30]

ولكن رغم كيد الاستعمار ومحاولاته الرامية إلى ضرب الإسلام والعربية إلا أن الجزائر لم تستسلم ولم تنهزم أنها تدرك أن لا عزة لها إلا بهما وأن لا قيمة للحياة بدونهما، فقد ظلت كما وصفها الإبراهيمي: "تعتز بعقيدتها وعروبتها وتعيش بهما وتعيش لهما".[31]

2- عروبة الجزائر كما اعتقدها الإبراهيمي:

بعد ما تطرقنا إلى علاقة الإسلام بالعربية، وإدراك الإبراهيمي وفهمه للمغالطات والمراوغات التي قامت بها الإدارة الفرنسية وسعيه في توضيح الحقائق وتعريبها، وجهاده الذي ناضل من أجل صون اللسان العربي ورؤيته للمقومات الأمة وهويتها، لتعرض من خلال هذه النقطة إلى جهوده الإصلاحية وهو يقف على ثغر من الثغور التي حاول المستعمر الفرنسي اقتحامها وضرب المجتمع الجزائري منها... ألا وهو ثغر عروبة الجزائر...

يربط الإبراهيمي هذه المشكلة (مشكلة العروبة في الجزائر) إلى التواجد الاستعماري "أما في الجزائر فإن مشكلة العروبة أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو العدو سافر للعرب وعروبتهم ولغتهم ودينهم الإسلام، ووجود المشكلة منوط ومتعلق بوجوده فإذا زال زال العنصر الأكبر منها، والسبب الأعظم منها، وإذا بقي —ولو إلى حين فمشكلة باقية سائرة إلى واحد من اثنين: أما أن نغلب الاستعمار على

عروبتنا ونعالج مشكلتنا بأيدينا- وهذا ما تفعله جمعية العلماء منذ قامت ثم لا نجد عائقا بعد الاحتلال الفرنسي لخلو الجزائر من العناصر العائقة كما أسلفنا الذكر، وإما أن يغلبنا الاستعمار على عروبتنا فتتطور المشكلة إلى شيء آخر وهو ما يقض مضاجعنا".[32]

ثم عرض الإبراهيمي دليله بعد ما عرج إلى المشكلة، وحجته في ذلك أنا لجزائر والشمال الإفريقي جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، هذه الأمة التي نبت أصلها في جزيرة العرب وامتد فرعها إلى الشمال الإفريقي مستحضرا التاريخ بطريقة توحي بمعرفته الواسعة وحسن إلمامه بالوقائع التاريخية، كما توحي بارتباطه القوي بالماضي وتأثره بالأسلاف في أسلوب رائع بليغ: "كأن جزيرة العربية أمٌّ رؤوم لهذا الشمال، تعده فلذة كبدها، فهي تطف عليه ونحن عليه، وتجعل منه مراوح لقيظها، وصفافا يفيضها، حنت عليه في حقبة غابرة التاريخ فرمته بقبائل بما نبين... وحتن إليه بعد الإسلام فأوفدت إليه الغر البهاليل من أصحاب مُحَمَّد صل الله عليه وسلم يحملون الرحمة والسلام والبيان، ويفتحون الأذهان والعقول والأفكار".[33]

ويتخذ الإبراهيمي من قضية عروبة الجزائر هدفا نبيلا يدافع عنه، وغاية سامية ينافح عنها، يشد بيده في ذلك أقرانه من أبناء الجمعية الذين يحاربون الاستعمار بقلم، الذين أخذوا على عاتقهم مسؤوليتهم قيادة معركة الهوية والانتماء، وخاضت الجمعية معارك طاحنة من أجل التصدي للضربات المستعمر لمقومات الفرد الجزائري: "والجمعية هي التي أثبتت للاستعمار أن الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام".[34]

إن جهاد الإبراهيمي، في الذود عن العروبة والعربية، وحمله لواء الدفاع عن اللغة التي أحبها وأتقنها وسرت في حسه مسرى الدم في العروق، جعله يتصدى للاحتلال الفرنسي بكل بسالة وقوة ويكشف خططه وألاعيبه ويفضح اختياله وأساليبه الرامية إلى إسقاط اللغة العربية وضربها، وتذكير الجزائريين وإيقاظ فيهم شعور الانتماء إذ أضحى يقول: "ينطر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول ويعمل للقضاء عليها بالفعل وهو في جميع أعماله يهدف إلى تهوين العربية بالبربرية، وقتل الموجود بالمعدوم، يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة ومع الكتابة العلم، وأدبا ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاء والخلود، وكل ذلك مما يقض مضجعه ويطير منامه، ويضخ مسمعه، ويقصر مقامة".[35]

ومن خلال ما سبق أثبت الإبراهيمي أن العربية قد كتب لها البقاء والخلود وبذلك رد قول المستعمر وأدحض رؤيته، وأن الشمال الإفريقي الذي حاول المحتل فصله عن امتداده الطبيعي (الأمة العربية) بافتعاله للقطبية البربرية وإذكائه ليعرفها... ها هو الإبراهيمي نراه —كما وصل عنه وعهدناه– في صولة من صولاته يجلد الاستعمار في معركة الأصل والهوية والانتماء "من أباطيل الاستعمار وثقافته أن يسمى السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومية أو لساعته فرنسيا، ويلحقه بنسبه ويساويه في حقوقه وميزاته، ثم ينكر على البربري مثلا أن يكن عربيا بعد ما مرت عليه في الاستعراب ثلاثة عشر قرنا وزيادة".[36]

أولا: التغريب ومجالاته المختلفة:

التغريب: هو "حالة التعلق والإعجاب والتقليد والمحاكاة للثقافة الغربية، والأخذ بالقيم والنظم وأساليب الحياة الغربية، بحيث يصبح الفرد أو الجماعة أو المجتمع المسلم الذي له هذا الموقف أو الاتجاه، غريبا في ميله وعواطفه وعاداته وأساليب حياته، وذوقه العام وتوجيهاته"[37]، والتغريب هو صناعة الدول الغربية المستعمرة، فهي التي أوجدته ودعمته لتحقيق غاياتها، ومن أبرز هذه الغايات هو الإبدال الثقافي، الذي يعني إبدال الثقافة الإسلامية وإحلال مكانها الثقافة الغربية، ولهذا التغريب عوامل داخلية وهي ضعف الدول الإسلامية وقابليتها للاستعمار والتخلي عن ثقافتها، وعوامل خارجية تتمثل في قوة المستعمر وقدرته على فرض ثقافته على المسلمين المحليين وللتغريب مجالات متعددة نذكر منها:

أ– مجال التعليم:

وهذا المجال واسع وجد المستعمر فيه ضالته، وقد يحقق للمستعمر غاياته، فقد اختاروا المجال الصحيح والأرحب من وجهة نظرهم، فبواسطة التعليم تصبح عقلية الأمة الإسلامية، بصيغة تتخلى فيها عن مقوماتها الشخصية الأساسية في الدين والقومية واللغة، والنتيجة تكون تلبيسها بمقومات طارئة، أساسها من الغرب الذي يتصف بالانحلال الخلقي، هذه العملية التغريبية في مجال التعليم غرسها المستعمر بدقة ووضع لها الخطط، وثبتت بسهولة على نطاق المدارس، كما دأب المستعمر على سد الفراغ الذي وجده في عقول الطلبة، بالقيم الأخلاقية وبالثقافة الغربية وأوهمهم بصلاحيتها لهم.[38]

ومع مرور الزمن والخطط والسياسات التي ركز عليها الاستعمار والتي ضمن نجاحها وانتشارها في البلاد الإسلامية عن طريق إنشاء معاهد ومدارس ثقافية تروج للثقافة الغربية وتدريسها للشباب العربي،

فقد ساد النظام التعليمي العلماني في الحقبة الاستعمارية الأجنبي لبلاد المسلمين، في البداية لم تكن الإدارة الاستعمارية تسمح بالتعليم إلا في نطاق محدود.

حارب الاستعمار التعليم الديني الذي كان موجود في الكتاتيب، وظل التعليم في مجله معتمدا على جهد المواطنين الذاتي، وعندما تقدم إدارة الاستعمار على مساعدة التعليم، فقد توجه هذه المساعدة كلها إلا جانب التعليم العلماني بحجة الحداثة. وشرعت الإدارات الاستعمارية إلى تقسيم التعليم إلى حديث وإسلامي، وبهذا عزلت تعليم اللغة العربية والتعليم الديني ووضعته في خزانة التعليم الإسلامي، وأهملته بل حاربته.[39]

ب– العولمة:

هو مجال جديد، استحدثه الاستعمار بوجهه الجديد وله عدة تفسيرات مثل: القرية الكونية، وسرعة انتقال المعلومات التجارة حول العالم ولكن المعنى الخفي والحقيقي لاستحداثه هو اختراق ثقافات الأمم الضعيفة، واحتلالها من قبل ثقافات القوى الكبرى، وظهر هذا المصطلح في الآونة الأخيرة وتبنته الدول الغربية، وكانت العولمة ولا زالت بداية لتغريب الأمم الأخرى بالكامل، أما من الناحية الثقافية، فنجد الغربيين قد ركزوا على نتاج الغزير من الآداب واللغات، وعلوم أخرى.[40]

ثانيا: الاعتراف بخصوصيات المجتمعات البشرية

ومن أهم مظاهر هذا الاعتراف الحوار مع الآخرين حتى لا نتقوقع حول أنفسنا، والمحافظة على القيم الإنسانية والأخلاقية والمعرفية التي مصدرها الدين الإسلامي، فالإسلام قوة ذاتية تكمن في محركه الأساسي الذي يقوده القرآن، حيث يقول جلاوستون: "ما دام القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ولا تكون هي نفسها هي في أمان".[41]

إن الدرس القرآني الذي يتعلمه يكون ثروة فكرية، مسنة على أساس التعاون والتعارف والتعايش، كما يقيم حلول للمشاكل التي تواجه العالم العربي خصوصا والعالم أجمع عموما كما في هذا مصادر التشريع الربانية دعوة للعلم والتعلم والمحافظة على الهوية العربية والثقافة الإسلامية دون الانغماس الكلي في الحضارة الغربية التي هتم بالمادة وتهمل الروح.

وهناك مجالات عديدة مثل الإعلام والسياسة لا يسمح المقام بذكرها، وقد تطرقنا لما له علاقة باللغة ومجال التعليم.

سبل التصدي لظاهرة التغريب:

وأهم الحلول المقترحة للقضاء على التغريب ومخاطره:

أولا: إحياء الانتماء والبحث عن الذات الحضارية

الشعوب النامية إبان معاناتها بصدمة الغرب، تباينة في طرق مواجهته، الذي يحاول مسخ أصولها وشخصيتها، والجدير بالذكر أن الدول العربية لم تتجدد في صناعة الخطط التي تخلعها من التغريب والغزو الثقافي وكذا القضاء على الأطماع الاستعمارية التي استهدفت محو إرادتها وتاريخها وذاتياتها، ولعل الخطوة الأولى في التصدي لهذا التيار الجارف والعابث بالوعي الأمة هو الرجوع إلى مصادر التشريع السنة والقرآن الكريم وإيجاد الحلول من خلالهما فالتراث الإسلامي غني بفكره، وأصالته وأدلته.[42]

إن العوج الفكري الذي طال الثقافة العربية الإسلامية، وقابليتهم للاستعمار والتقليد والتبعية للثقافة الغربية لها نتائج وخيمة وذات أبعاد خطيرة تمس الأصالة العربية والهوية الإسلامية.

الخطر الأول: العزلة التي عزلنا بها أنفسنا عن العالم، والذهول الذي أصابنا عندنا وجدنا الأمم من حولنا تقدمنا في الأبحاث العلمية.

الخطر الثاني: جمود المسلمين على الموجود وتقاعسهم عن تحصيل العلوم العقلية والتجريبية وانكباب بعضهم على الماضي.

الخاتمـــة:

وفي ختام هذا المقال نستخلص أهم النتائج ونذكر منها:

- ✓ ظهور حركات إصلاحية في الجزائر متمثلة في جمعية العلماء المسلمين ودورها في إحياء الثوابت الوطنية.
- ✓ بروز الوعي للشعب الجزائري نتيجة مشاركته في الحرب العالمية الأولى.
- ✓ تنظيم بيت جمعية العلماء المسلمين وتحديد الأهداف والوسائل من أجل تحقيق الاستقلال السياسي والعسكري.
- ✓ المحافظة على الهوية الوطنية والإسلامية، وتربية الأجيال عليها.
- ✓ الاهتمام بالتعليم العربي الحر وتخليصه من خطر السياسة الاستعمارية الحديثة.
- ✓ الوقوف على جهود العلماء القدماء مثل الإبراهيمي والاقتداء به.
- ✓ إن أمر اللغة العربية عظيم ليس فلا تترك لمستثمر، فهذا الخطر بعينه على قيمنا ولغتنا وهويتنا.

- ✓ مواجهة التغريب والغزو الثقافي بتكثيف جهود الأمة، وعدم تشتت والتردد فهذا ليس في صالح الأمة الإسلامية.
- ✓ ضرورة العودة للقيم الأخلاقية والإنسانية التي جاء بها التشريع.
- ✓ الوقوف أمام الحضارة الغربية كالمتعلم المستفيد، وليس كالفرد المتأثر المقلد.
- ✓ الإلقاح ليس معناه الانغماس وإنما استفادة وتقييم، ومن هنا دعوة لتفعيل القيم الحضارية كالحوار والتعايش.

التوصـيات:

- تعزيز الثقافة الإسلامية من لغة ودين كهوية والثبات للحضور.
- تربية النشء على مصادر التشريع من القرآن الكريم والاهتمام باللغة العربية لأنها لسان هذا التشريع الرباني.
- فتح الكتاتيب والاهتمام بالمدارس القرآنية وإعادة النظر في مناهج التعليم.

مواجهة خطر الغزو الثقافي والتغريب والتعاون والاتحاد وبوسائل حديثة مثل الإعلام والعلم حسب ما يقتضيه العصر.

---

[1] – نور الدين أبو لحية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقات بينهما، دار الأنوار للنشر والتوزيع، (د،ط)، 2016، ص26.

[2] – عبد الرحمان بن براهيم العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر (1920-1936)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ج1، ص1982.

[3] – عمار قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، الدار العثمانية، الجزائر 2013، ج1، ص145.

[4] – كمال عجالي، مساهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على الهوية الوطنية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد16، ديسمبر 2001، ص103.

[5] – يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1954-1983، ديوان المطبوعات الوطنية الجامعية، (د،ط)، الجزائر، 2007، ص87.

[6] – محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتنسيق: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ط1، ج4، ص164-165.

[7] – عبد الرحمان بن براهيم العقون، المصدر السابق، ص185.

[8] – عبد الحميد بن باديس، افتتاحية الشهاب، السنة السابعة، 1931، مج، ص355.

[9] – سليمة كبيرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة العربية الإسلامية في الجزائر، مكتبة الخضراء، الجزائر، (د،ط)، ص21.

[10] – علي تابليت، بحوث في تاريخ الجزائر، وزارة المجاهدين، الجزائر، (د،ط)، 2014، ج2، ص502.

[11] – محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1999، ص203.

[12] – عبد الحميد زوزو، الفكر السياسي للحركة الوطنية والثورة التحريرية، دار هومة، الجزائر، (د،ط)، 2012، ج1، ص264.

[13] – رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط3، ص93.

[14] – محمد خير الدين، مذكرات، مؤسسة الضحى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ط3، ج2، ص137.

[15] – رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975م.

[16] – صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر في عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين، دار العلوم للنشر والتوزيع، ص205.

[17] – رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر، 1974م، ص32.

[18] – صالح فركوس، المرجع السابق، ص205.

[19] – عمر فروخ ومصطفى خالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، سنة 1953م، ص25.

[20] – صالح مختاري، أسرار الاستيطان الأوروبي الفرنسي على الجزائر المحروسة، 2004م، ص30.

[21] – عبد الكريم بوصفصاف، رواد النهضة والتجديد في الجزائر، (1889م-1965م)، دار الهدى، عين ميلة، 2007، ص68.

[22] – محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص164.

[23] – محمد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه، ج1، ص96.

[24] – محمد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه ج5، 166، ينظر محمد المهداوي، البشير الإبراهيمي، دار الفكر، دمشق، ط1 (1988م)، ص64-68، ينظر: منور الأذهان وفارس البيان، الإمام البشير الإبراهيمي منور الأذهان وفارس البيان، المجلس الأعلى للغة العربية، الأبيار، الجزائر، تاريخ الانعقاد: 01-06-2009، ص14-15.

[25] – محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجماعية، دار الفجر وهران، ص62.

[26] – الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى، مطبعة البحث، قسنطينة، الجزائر د-ط، 1967، ص65.

[27] – مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2011، ط1، ج1، ص134.

[28] – المصدر نفسه، ج3، ص281.

[29] – المصدر نفسه، ج3، ص255.

[30] – آثار الإبراهيمي، ج3، ص48.

[31] – آثار الإبراهيمي، ج3، ص48.

[32] – آثار الإبراهيمي، ج3، ص349.

[33] – المصدر نفسه، ج5، ص150.

[34] – آثار الإبراهيمي، ج3، ص58.

[35] – المصدر نفسه، ج3، ص57.

[36] – المصدر نفسه، ج3، ص430.

[37] – سلتاغ عبود، الثقافة الإسلامية، دار العماري، بيروت، 2001م، ص31.

[38] – اسماعيل الفاروقي، أسلمة المعرفة دار البحوث العلمية، الكويت، ص38.

[39] – المرجع السابق، الثقافة الإسلامية، ص96.

[40] – أنيس المقديسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، 1977م، ط6، ص129، بتصرف.

[41] – المرجع نفسه، ص16.

[42] – المرزوقي علي الهادي، الغزو الثقافي الغربي (أسبابه ومخاطره ونتائجه)، مجلة كليات التربية، العدد 12، سنة 2018م، ص15.